مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X

الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

المجلد15 /العـدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

جهود السلطتين السياسية والعلمية في مواجهة خطر الأوبئة في الغرب الإسلامي الوسيطي -نماذج منتقاة-

The Efforts of the Political and Scientific Authority to Confronting the pandemics Threat in the Medieval Islamic West - Selected Models

إعداد الأستاذة: عقيلة عومري
قسم اللغة والحضارة الإسلامية كلية العلوم الإسلامية جامعة باتنة1

ملخص:

عرفت منطقة الغرب الإسلامي في العصر الوسيط على غرار العالم أجمع جوائح كثيرة مسّت بنيته الديموغرافية، والاجتماعية والاقتصادية، وكان للأمراض الفتّاكة والأوبئة الوافدة نصيب غير قليل، وحاولت شرائح المجتمعات في هذه المنطقة مواجهتها، بكل ما أوتيت، ولعل السلطة الموحدية أبرز مثال على تحمّل أولي الأمر مسؤوليتهم في مواجهة هذه الأوبئة قبل مجيئها وبعد انتشارها، كما أنّ السلطة العلمية؛ طبيّة كانت أو فقهية، أو مؤرخة للحدث لم تدخر وسعا في محاولة فهم الوباء واكتشاف أسبابه وطرق علاجه نفسيا وطبيّا، والإجابة على كثير من مسائله الشرعية، والتأريخ له، وقد نجحوا في كثير من الأحيان في احتواء هذه الأوبئة وتخفيف وطأتها على النّاس.

الكلمات المفتاحية :الأوبئة ، السلطة السياسية ، السلطة العلمية ، الطاعون ، ابن خاتمة.

Abstract: In the Middle Ages, the Islamic West region, like the whole world, was known for many pandemics that affected its demographic, social and economic

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 /العدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

structure, and deadly diseases and incoming epidemics had a significant share. The segments of societies in this region tried to confront them, with everything they had; for example Almouahidine_ authority is the most prominent example of the endurance of the authority. Their responsibility in confronting these pandemics before their arrival and after their spread, and the scientific authority; Be it medical, jurisprudence, or a historian of the event, they have spared no effort in trying to understand the pandemic, discover its causes and ways of treating it psychologically and medically, and answer many of its legitimate issues, and its history. They have succeeded in many times in containing these epidemics and mitigating their impact on people.

Keywords: pandemic. Political authority. Scientific authority. Plague. Ibn Khatima.

مقدمة :

لعلّ مقولة التاريخ يعيد نفسه "التي نتحفظ عليها وعلى خلفياتها، وإطلاقاتها غير العلميّة، يمكن أن تسعفنا قليلا في هكذا أحداث متشابهة الحيثيات والمجريات،رغم اختلاف الزمان والمكان والشخصيات، وبعض العوامل والمسبّبات، ويمكننا معها أن نضع بعض التقاطعات،التي من خلالها نحاول سبر أغوار الماضي في منطقتنا بإيجابياته وسلبياته ،لنستمد منه ما يمكن أن نخدم به حاضرنا في زمن كورونا، ونطرح ما يمكن أن يجعلنا عاجزين عن مواكبة الأزمة، وبالتّالي استحالة الخروج منها، ولعلّ هذه إحدى إيجابيات دراسة الحادثة التاريخيّة.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريَّة الجزائريَّة الديمقراطيَّة الشَّعبيَّة
وزارة الشؤون الدِّينيَّة والأوقاف
المجلد15 /العـدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

لقد عرفت منطقتنا في العصر الوسيط جوائح كثيرة شأنها شأن مناطق كثيرة من المعمورة ،ولست هنا في مقام التأريخ لهذه الجوائح فهي كثيرة ومتنوعة منها الطبيعية كالزلازل، والفيضانات والجفاف والمجاعات، واجتياح الجراد، والأوبئة وغيرها، ومنها ما كان بسبب الفعل الإنساني كمخلفات الحروب والصراعات العسكرية،والأزمات الاقتصادية، وفي الحقيقة قد تكون هذه الجوائح كلها مرتبطة بطريقة أو أخرى بعمل الإنسان وكسبه، لأنّنا نلحظ أحيانا كثيرة الارتباط بينها وبين اقترافات الإنسان، فكثير من الحروب خلفت مجاعات وسوء غذاء وتلوث هواء ،سواء في منطقتنا المغربية ،أو غيرها، لتنتقل إلينا عبر منافذ بحرية أو برية،و بفضل حركة التنقل والتجارة العالميّة، ممّا عجّل بوقوع أوبئة وأمراض مستعصية فتكت بالبنية الديموغرافية؛ فلا تكاد المنطقة يمر عليها عقد أو عقدين يزيد أو ينقص قليلا إلا وحلّ بها وباء من الأوبئة [1]؛ إلى جانب التّردّي الأخلاقي، وانتشار الفساد والظلم التي لا نراها أسبابا خرافية أسطورية، لأنّنا نؤمن بأنّ لها تأثير كبير في انتشار الكوارث والأوبئة،سواء باستقراء آيات القرآن الكريم والسنة النبوية، أو استقراء بعض الأحداث التاريخية،وقصص بعض الأمم وخلفيات عقوباتها،فعشرات الآيات القرآنية تنبئنا بذلك، ولعلّ أبلغ ما يفسر ارتباط كسب الإنسان بما يحدث له من مصائب هي قوله تعالى:

1 . الحسن بن محمد الوزان،وصف أفريقية،تر: محمد الحجي و محمد الأخضر،ط 2،دار الغرب الإسلامي،بيروت ت،لبنان،1982م1/85.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 /العدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}، النحل (112) .

لذا ارتبطت بعض الأوبئة بمجاعات شديدة، كما ارتبطت بالحروب، فقد حدث في سنة 588هـ/1192م، 630هـ/1232م، 635هـ/1237م693هـ/1293م، 927هـ/1520م. مجاعات أعقبتها أوبئة. أمّا في سنة 610هـ/1213م فقد حل الوباء عقب هزيمة العقاب سنة 609هـ/1212م، و656هـ/1258م الذي حلّ بعد اجتياح التتر بغداد، وقد وصل هذا الوباء إلى أفريقية (تونس) [2].

كما أنّ هناك أوبئة ظهرت دون أن ترتبط بحروب قبلها مباشرة كالوباء الشديد طاعون 571هـ/1176م الذي حلّ بالمغرب الأقصى(مراكش)و ذكره ابن عذارى، وذكر شدة وطأته وكثرة ضحاياه حتى من أفراد الأسرة الحاكمة [3].

أما بعد الموحّدين قرابة قرن من الزمن فأبرز ما ظهر من الأوبئة هو الطاعون الأسود الذي بدأ من 748 هـ/ 1347م إلى غاية 750هـ/1349م [4]

---

2 . ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مصور للطباعة والوراقة، الرباط،1972م ص272مزهود سمية، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط(588 . 927هـ/1192.1520م)، ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009م،ص134.136 .

3 . ابن عذارى،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،تح:كولان وليفي بروفنسال، ط 1 دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان، 2009م،209/4.

4. ،مزدور سمية، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط،ص136.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريَّة الجزائريَّة الديمقراطيَّة الشَّعبيَّة
وزارة الشؤون الدِّينيَّة والأوقاف
المجلد15 /العـدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

أمّا بدءا من 765 هـ/ 1363م،و805هـ/1402م و 845هـ/1441م و847هـ/1443موـ856هـ/1452م و 871هـ/1466م و 886هـ/1481م و926هـ/1519م إلى 927هـ/1520م. فإنّ هذه التواريخ لأوبئة مختلفة في مناطق متفرقة أو مجتمعة أحيانا من المغرب الكبير سواء المغرب الأقصى أو الأدنى أو ألأوسط وفي غالب الحال يطلق أهل المنطقة في هذه الأزمنة على أي وباء فتاك اسم الطاعون لسرعة وكثرة ضحاياه ، دون أن نتأكد من أنّه هو الطاعون المعروف، باستثناء طاعون 748هـ/ 1247م فقد اتفقت المصادر على تسميته بالطاعون .

كما ذكرت المصادر مرضا آخر لا يقلّ خطورة عن الطاعون وهو الجذام؛ فهو يأتي في المرتبة الثانية بعد الطاعون ،فقد نعته الطبيب ابن زهر "[5]بالعلة الكبرى"، يكفي أنّ لحم المريض يتساقط عن جسمه عند استفحال المرض[6]، وكانت آثاره النفسية والاجتماعية كبيرة على المصابين وذويهم،لكونهم يتحولون إلى شريحة اجتماعية منبوذة في المجتمع .،إلى جانب هناك أمراض

5 . وهو أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر ينظر ترجمته ، ابن أبي أصبيعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت،[د.ت]، 519. 521. في كتابه التيسير في المداواة والتدبير، تح: محمد بن عبد الله الروداني،1991 الرباط،م،ص378.

6 يتضح ذلك في ترجمة لأحد المصابين به من أولياء المتصوفة وهو أبو يعقوب يوسف المبتلى،ينظر:ابن الزيات التادلي،التّشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي،تح:أحمد التوفيق،ط 2،مطبعة النجاح الجديدة،دار البيضاء،1997م،ص312 .313.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 /العدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

مختلفة كالزهري "أو داء الإفرنج" [7]، وهو مرض يأتي عن طريق الاتصال الجنسي بغير المسلمين آنذاك ، فهو داء عرفته بلاد المغرب الإسلامي عن طريق اليهود الهاربين من الأندلس بعد 1492م،حين طرد الدون فيرديناند اليهود من إسبانيا نحو المغرب كما يشير إلى ذلك الرحالة الوزان،وهو داء فضيع بأوجاعه،وبثوره وقروحه [8]. إلى جانب أمراض كثيرة عرفها المغرب الوسيطي. الذي لابد أن الأمر لا يمكن أن يخل من جهود وأعمال قام بها ساكنته لأجل احتواء هذه الأوبئة، ومحاولة السيطرة عليها قدر الإمكان.

فكيف واجه المجتمع بشرائحه المختلفة سواء السّياسية منها أو النخبوية هذه الأوبئة؟

لا يسمح المقام لي بتغطية كل هذه المراحل التاريخية بالتفصيل ،أو حصر كل الأمراض المميتة لكنني سأركز على فترتين هامتين فترة الموحّدين، وهي الفترة التي لازالت بعض المرتكزات الحضارية قائمة فيها ، وفترة ما بعد الموحدين خاصة من 748 هـ/ 1347م إلى 750هـ/1349م [9] لكون المنطقة في هذه السنوات بالذات اجتاحها وباء عالمي وهو الطاعون الأسود كما هو الحال عندنا لأميط اللثام قليلا عن بعض الجهود التي بذلت لأجل ذلك .

---

7. الوزان وصف إفريقية،84/1.
8. المرجع نفسه.
9. مزدور سمية، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط،ص136.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدّينيّة والأوقاف
المجلد15 /العـدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

فكيف واجهت السّلطتان السّياسيّة والعلميّة في الغرب الإسلامي الوسيطي الجوائح الوبائية التي ألمّت بمجتمعاتها لأجل التّغلب عليها، أو التقليل من وطأتها ؟

للإجابة على ذلك لابدّ أن تناول جهود السلطة الموحّدية في مرحلتين هامتين مرحلة بناء الدولة وتشييد منظومة صحيّة قويّة قبل اجتياحات الأوبئة، ومرحلة الإجراءات الفورية حين ظهور الوباء . :

أولا: تدابير السلطة السياسية الموحّديّة لاحتواء الأوبئة:

1 . الإجراءات العملية لبناء منظومة صحيّة قبل ظهور الأوبئة:

اهتم الموحدون اهتماما واسعا بالطب والصيدلة؛فقد قرّبوا الأطباء ، منذ عصر عبد المؤمن أول خليفة للموحّدين و استمر مع يوسف ابنه وأحفاده خاصة عهدي يعقوب المنصور وابنه الناصر؛فبرز أطباء كثيرون في هذا العهود،وكتاب الطبيب الموحدي ابن أصبيعة (ت668هـ/1269م)[10] حافل بتراجمهم فأهم الأعمال التي قامت بها السلطة السياسيّة هي :

أ. تقريب الأطباء وتنظيمهم و وهيكلتهم،فقد عينوا لهم رؤساء،فقد كان أبو جعفر الذهبي(ت600هـ/ 1203م)[11] مزوارا (نقيبا)للأطباء،وللطلبة[12]

10. ينظر ترجمته، ابن أبي أصبيعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص537.
11. ينظر ترجمته المرجع نفسه، ا،ص537.
12: المرجع نفسه،ص532.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 /العدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

ب . تدريس الطب على عهد هم بالمغرب أيضا ،وأشهر مُدرّس للطب أبو الحجاج يوسف بن موراطير [13] ، وكان ابن حسان أيضا مقرئا للطب، كما لا يستبعد تدريسه له [14].

ت . بناء كثير من المارستانات و المستشفيات منها مارستان مراكش،ومارستان سلا،وقصر ابن عبد الكريم [15] المارستان العظيم الذي بناه المنصور الموحدي في مراكش والذي أطلق عليه "دار الفرج " [16] لعلاج المرض والمجانين، والذي روعي فيه اختيار الموقع المناسب،والأثاث، وتكفل الدولة بمصاريف إقامة؛ من أكل وشرب ولباس الصيف و الشتاء بل ملابس الليل وأخرى للنهار ، وأدوية المرضى [17] وهو من أعظم المارستانات في تلك الفترة ،فقد ذهب المؤرخ الفرنسي روني ميلي [18] إلى عقد مقارنة بينه وبين مستشفيات أوروبا الوسيطية ،فلاحظ أنّ هناك فرقا شاسعا بين مستشفيات المغرب الموحدي

13 . ابن أبي أصبيعة ، عيون الأنباء مرجع نفسه،ص533

14. المرجع نفسه ،ص 535، حمد المنوني ، العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين،،ط2،مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر،الرباط،1977م،ص123

15 حسين بولقطيب،جوائح وأوبئة مغرب الموحّدين،منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء،2002م،ص 74

16 . مؤلف مجهول ،الاستبصار في عجائب الأمصار ،دار الشؤون الثقافية،بغداد،ص210

17. عبد الواحد المراكشي،المعجب في تلخيص أخبار المغرب،ط 1، المكتبة العصرية، صيدا،بيروت،2006م، ص 209

18 حسين بولقطيب مرجع سابق،ص74

وبين مثيلاتها في أوروبا المسيحية آنذاك،بل صرّح أنّ مارستان المنصور تفوق حتى على مستشفيات باريس عند القرن العشرين .

ث . توظيف عدة صيادلة في مارستان مراكش،وبلاطات الخلفاء[19]

ج . تكفل الدولة بمصاريف إقامة وأدوية كل المرضى أثناء وجودهم بالمارستان ، والمرضى الفقراء حتى بعد مغادرتهم و طيلة مدة نقاهتهم[20] .

ح . تخصيص أماكن في مارستان مراكش بمثابة مختبرات ومعامل لصناعة الأدوية واللقاحات [21] ، لإجراء التجارب على الحيوانات والطيور قبل إعطائها للمرضى[22].

خ . تعهد الخليفة المنصور زيارة مرضى مارستان مراكش كل يوم جمعة للاطمئنان عليهم وعلى الخدمات المقدمة لهم[23]

د. حث السلطة الموحدية الأطباء على إنتاج ترياق لإنقاذ حياة رعاياها الذين يتعرضون لعظات الكلاب المسعورة أو لدغات الأفاعي و الثعابين العقارب وغيرها[24]،فقد صنع طبيب الخليفة عبد المؤمن أبو مروان بن أبي العلاء بن زهر

19. المنوني ،العلوم والآداب والفنون ،مرجع سابق،ص 123
20 عبد الواحد المراكشي،المعجب،ص 209.
21 نفسه.
22 الحسين بن لقطيب، ،جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين ص71.
23 عبد الواحد المراكشي ،مرجع سابق،ص210.
24. ابن أبي أصبيعة ،عيون الأنباء،مرجع سابق،ص548.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 /العدد: 1 (2021)، ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

ترياقا سمي بترياق الأنتلة [25]،كما أمر المنصور الطبيب أباجعفر بن الغزال بجمع حوائج الترياق الكبير وتركيبه[26] .

ذ . شهرة أطباء الموحدين بلغت المشرق وأوروبا ،فقد وصف الحافظ الذهبي طبيب المنصور أبابكر بن عبد الملك بن زهر(ت 595هـ/1198م) بـ"شيخ الطب وجالينوس العصر"[27]،فقد أثر طبيب عبد المؤمن أبو مروان عبد الملك بن زهر أثرا بليغا في الطب الأوروبي، وظلّ تأثيره إلى غاية نهاية القرن السابع عشر الميلادي ، وذلك بفضل كتبه التي ترجمت إلى العبرية واللاتينية[28] .

ر. ومن مظاهر تنظيم الطب والصيدلة في عهدهم وجود خزانة أو مخزن للأدوية عرف "ببيت المعاجين و الأشربة" خاصا بخلفاء الموحدين،وقد تداول على تولي رئاستها عدد من الأطباء منهم : أبو محمد قاسم الاشبيلي أيام يوسف بن غبد المؤمن،وأبو يحي بن قاسم تولاها على عهد يعقوب المنصور، وبقي في وظيفته إلى أن توفي في عهد المستنصر ،ثمّ أسندت رئاستها لولده [29]

25 ابن أبي صبيعة عيون الأنباء، مرجع السابق ،ص528.

26 المرجع نفسه،ص 536.

27. الذهبي،العبر في خبر من غبر،تح:أبوهاجر محمد زغلول، دار الكتب العلمية،بيروت، [د.تٍ]، 112/3.

28 . المنزي العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ،ص116

29. . المرجع نفسه

ز. وجود طبيبات يقمن بعلاج النساء، فقد اشتهرت أم عمرو بنت أبي مروان بن زهر (ت بعد 580هـ/ 1184م) أخت الطبيب أبي بكر بن زهر،وحفيدة الطبيب عبد الملك بن زهر [30]،فقد كانت ماهرة في التدبير والعلاج ،فقد كانت طبيبة نساء وأطفال بني عبد المؤمن ومستشارة رجالهم في الطب،وكذا ابنتها [31]

س . إعطاء الصلاحيات الواسعة لقضاة الدولة من أجل عقوبة المنتحلين للطب المتلاعبين بحياة الناس ،فقد سلطت عقوبات على المنتحلين للطب من دجالين ومشعوذين تراوحت بين الجلد والسجن والديّة [32]

هذه هي أهم ملامح المنظومة الصحيّة التي بلغتها بلاد المغرب في عهد الموحدين ،لم تعرفها حقبة قبلها ولا بعدها ، ولا حتى أوروبا الوسيطية .

لكن تراجع الطب في الحقب اللاحقة بعد الموحّدين خاصة خلال القرن والعاشر الهجري السادس عشر ميلادي بشهادة الرحالة الوزان الذي جاب

30 . ينظر ترجمتها :ابن عبد الملك الأنصاري،الذيل والتكملة، لكتابي الموصول والصلة،تح:إحسان عباس،محمد بن شريفة،بشير عواد،ط1،دار الغرب الإسلامي،تونس،2012م، 413/5

31. ابن أبي أصيبيعة،عيون الأنباء في طبقات الأطباءص524،المرجع نفسه

32 . ابن المناصف، تنبيه الحكام على م آخذ الأحكام،أعده للنشر:عبد الحفصي منصور،تونس،1988م،ص 353 . 354 بواسطة حسين بولقطيب : جوايح وأوبئة مغرب عهد الموحدين،ص77.

بعض مناطق المغرب منها مدينة مراكش وأقاليمها،فقد ذكر عند زيارته لأحد أقاليمها لم يجد طبيبا ولا عقاقيري [33]

2: الإجراءات الفورية لاحتواء الأوبئة في عهد الموحدّيين:

رغم تطور الطّب في هذا العهد،وحرص الموحديين على إقامة منظومة صحيّة قويّة، إلا أنّ أثر الأوبئة كان وقعه كبيرا على البنية الديموغرافية أو النفسية،فقد كان الناس تموت من الهلع والخوف كما يصف بعض المؤرخين [34]، إلا أنّ المصادر لم ترصد لنا الكيفية التي تعاملت السّلطة الموحدية مع هذه الأوبئة التي اجتاحت المنطقة في عهدهم سوى بعض الإشارات حاولت أن استشف ما يخص موضوع هذا البحث :

1 . حين عمّ الطاعون مراكش وأحوازها 571هـ/ 1176م فرضت السلطة الموحّدية على كل فرد لا يخرج من بيته إلا وقد كتب في ورقة اسمه ونسبه وموضع سكنه ويضعها في جيبه،فإن مات حمل إلى أهله [35] وهي بمثابة بطاقة تعريف بالمفهوم الحالي،والموحدون أول من ابتكره أثناء هذا الوباء .

2. .نظرا لكثرة ضحايا الطاعون 571هـ/1176م الذي استمر سنة كاملة ، فقد قدر كل من صاحب البيان المغرب والحلل الموشية الخسائر اليومية مائة

33 الوزان،وصف أفريقيا،ص98 .

34 . ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص267.

35 . المرجع نفسه.

إلى مائة وتسعين شخصا في مراكش، وحتى البلاط الموحدي لم يسلم من ذلك[36]، كما لم يسلم العلماء من ذلك[37].

ورفعا للحرج والمشقة على الناس ورفقا بهم أصدر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن تعليمات بأن يصلى على الموتى في سائر مساجد مراكش بدل حملهم للمسجد الجامع الذي كانت تصلى فيه الجنائز[38].وهذا دليل على أنه كان يصلى عليهم ويحملون رغم الوباء ، أمّا كيف فلم تخبرنا المصادر ولا عن تغسيلهم.فلم أجد سوى إشارة لتغسيل مرضى الجذام عند تغسيل أحد المتصوّفة[39]

3 . بالنسبة لمرض الجذام الذي يعتبر المرض الثاني في خطورته بعد الطاعون في المغرب ،قامت الدولة الموحديّة بجمع المصابين بهذا الوباء في حارات عرفت "بحارات الجذمى أو الجذماء" [40] بنيت خارج المدن لتكون سكناهم تحت مجرى الرياح اتجاهها حتى لايصل من أبخرتهم، ولا مياه غسلهم شيء

36 كان يوميا يسقط حوالي ثلاثين من الخدم كما مات أربعة من إخوة الخليفة ،ومرض الخليفة لكنه شفي ،ينظر ابن عذارى،البيان المغرب ،4/209.210

37 ت توفي القاضي أبو يوسف حجاج بن يوسف،ص والكاتب أبو الحكم بن هردوش وغيرهما،ينظر المرجع نفسه،ص210.

38 . المرجع نفسه،ص209.

39 . ابن الزيات،التشوف، مرجع سابق،ص313.

40. المرجع نفسهً312. 313

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 /العدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

للمدن وساكنيها[41]، تلافيا لانتشار العدوى فقد شيدت في عهد الموحدين حارة في فاس وأخرى في مراكش، وأخرتين في سلا والقصر الكبير [42]. وكانت الدولة تتكفل بالنفقة عليهم ،ويذهب أحد الباحثين أن جذمى المغرب على عهد الموحّدين حظوا بعناية خاصة من طرف الدولة عكس أقرانهم بأوروبا الوسيطة، فقد فُتك بهؤلاء جماعيا في فرنسا سنة 1312م[43]

ثانيا : جهود السلطة العلمية الوسيطيّة وإسهاماتها أثناء الأوبئة :

1 . جهود الأطباء التدوينية والطبية :

لقد تبيّن لي من خلال البحث في المصادر والمراجع أنّ كمّا هائلا من المؤلفات حول الطواعين قد أنجز، وقد وجدت أنّه منذ القرن الثالث الهجري والمؤلفات في هذا الموضوع تترا ،طبعا فيها ما هو موجود، ومنها ما هو مفقود، ومنها ما هو مخطوط ، ومنها ما هو محقق مشرقا ومغربا. والذي يعنينا هنا هي المؤلفات المغربية التي ألفها الأطباء خصوصا . فقد أبدعوا في اكتشاف أسباب الأوبئة وتشخيصها،وبعض طرق الوقاية منها و العلاج في بعض الأحيان،وضمنوا ذلك في مدوناتهم ، مكتفية همنا بذكر نماذج فقط منها :

41 . أحمد بن القاضي،جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة ،الرباط،1972م،ص34.

42 . الحسين بولقطيب،جوائح وأوبئةئ مغرب عهد الموحدين،ص56

43 المرجع نفسه،،ص57

. ففي العصر الموحّدي أكتفي بذكر نموذج واحد هو من عائلة أطباء :

الطبيب أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر الاشبيلي (ت557هـ /1161م طبيب الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي له كتب عديدة في الطب والأمراض أشهرها كتابي "التيسير في المداواة والتدبير" ، و" الأغذية "[44] وقد أخذ عن كتابيه الأوربيون ، وقد كشف بعض أسباب الأوبئة في كتابيه قبل أن تعرفها أوروبا منها :

أ. فساد الهواء والماء من أسباب كثير من الأمراض منها الطاعون ،وقد أشار إلى ذلك في كتابيه الأغذية والتيسير[45] ،

ب . كما أشار إلى أن من أسباب الأوبئة القحط وتغير الهواء وفساده و,تغير النمط الغذائي بعد المجاعات[46] ، وهذا ما قد يفسر ظهور بعض الأوبئة بعد المجاعات والقحط.

كما كشف هذا الطبيب أنّ الوباء يجد مكانه في المريض السيء المزاج أكثر من كان ميزاجه معتدلا [47] أي مناعة الإنسان تلعب دورا كبيرا في شفاء

44 ابن أي أصبيعة ،عيون الأنباء،ص521

45 . ابن زهر،الأغذية،ص143،بواسطة سمية مزدور،المجاعات والأوبئةنمرجع سابق،ص118ت119

46. ابن زهر،التيسيرفي المداواة والتيسير ،ص 459،الأغذية،ص145،مزدور سمية المجاعات والأوبئة،ص122

47. المرجع نفسه ص125

الموبوء أو تعثر هذا الشفاء. كما يكون غضب الله سببا كافيا للإصابة بالوباء،وهذا دليل على وجود الجانب الروحي الوجداني في تكوين الطبيب المسلم آنذاك ،فهو إلى جانب كونه طبيبا فهو فقيه أيضا .

أمّا بعد الموحدين فقد دفع اجتياح الطاعون للمغرب وللعالم أسره سنة 747هـ/1347إلى .750هـ/1349م ثلاثة أبرز أطباء الأندلس في تلك الفترة إلى محاولة التّصدّي لهذا الوباء و ذلك عن طريق العمل لمساعدة الموبوئين والتأليف عن الوباء، مشخصين المرض والعدوى وكيفية عزل المرضى والتخلص من الثياب الموبوءة وهم:

1 . أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري (ت 770هـ/ 1369م)[48]

من ألمرية الفقيه والطبيب والشاعر ،الذي تجمع الروايات التاريخية على أنّه صاحب أول كتاب طبي في الأوبئة ، وهو كتاب "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد "[49]

48. ينظر ترجمته : ابن الخطيلب،الإحاطة فيي أخبار غرناطة ط 1،دار الكتب العلمية ،بيوت،لبنان،108/1

49 ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي.. قاهر الطاعون وصاحب أول كتاب الأوبئة . تقرير الجزية الوثائقية ، 6 مايو 2020 م.

tps://doc.aljazeera.net/تقارير/ابن-خاتمة-الأنصاري-الأندلسي-

2 . أما الطبيب الثاني هو الفقيه والمؤرخ و الفيلسوف والسّياسيّ محمّد بن عبد الله بن سعيد السّلماني الخطيب الشهير بلسان الدين الخطيب (ت776هـ/1374م)[50] كتابه مقنعة السائل عن المرض.

3. أمّا الطبيب الثالث وهو محمّد بن علي الشقوري(776 كان حيّا)[51] وكتابه "تحقيق النبأ في أمر الوباء" ،إلا أنّه مفقود ولم يصل منه إلا ملخص بعنوان النصيحة. فهذه الكتب الثلاثة مجتمعة حققها الدكتور محمد حسن تحت اسم ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف "كما حققت الدكتورة حياة قارة كتاب ابن الخطيب.

كان الطاعون الأسود هذا بؤرته هو الآخر بلاد الصين ،ثم الهند وبلاد فارس والعراق والأراضي التركية ،ثم عبر البحر الأسود إلى الموانئ الأوروبية ،كما أن البحر المتوسط كان معبرا له فوصل تونس وبلاد المغرب ككل بما فيها الأندلس .

وكان ابن خاتمة أحد أطباء الأندلس فهو الذي سعى لإسعاف المرضى والمصابين ، مراقبا تقلبات أحوالهم والأعراض التي تظهر عليهم في كل مرحلة من مراحل المرض ، وما هي أسباب تفشيه ، وما ا لطريقة التي تحدّ من انتشاره

50 . ينظر ترجمته، ، . الزركلي، الأعلامنط15،دار العلم للملايين،بيروت،2002م،235/6

51 . الزركلي، المرجع نفسه،265/6

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 /العدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

،مسجلا تلك المشاهدات والملاحظات التي تكللت بتأليف نظرية علمية طبية في الطاعون القاتل ،وهذا ما يفسر لنا سر انتشار كتابه في أوروبا.

2. دور المؤرخين والفقهاء في هذه الأزمة :

أ. مدونات المؤرخين وأخبار الوباء :

لقد دوّن بعض مؤرخي المنطقة أحداث الأوبئة كما دوّنه أيضا كثير من علمائنا في المشرق مؤرخينا كانوا أوفقهاء أوغيرهم، سواء كانوا معاصرين له أو سمعوا عنه من غيرهم،

فابن عذارى (ت بعد712هـ /1312م) في كتابه البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تناول بعض الأوبئة التي عاصرها، كما أنّ ابن أبي زرع من القرن الثامن ذكر وباء 571هـ ووباء 588هـ في كتابه الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس

كذا صاحب الحلل الموشية في الأخبار المراكشيّة الذي كان حيا أواخر القرن الثامن الهجري

كما أن ابن خلدون (ت 808هـ/1406م في كتابه " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر تكلّم عن الأوبئة المختلفة التي لم يعاصرها واصفا مخلّفات طاعون 749هـ/1348م الذي

عاصره،وفقد فيه عائلته وعددا من مشايخه "وتحيّف الأمم وذهب بأهل الجبل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها" [52]

أما أسباب الوباء فأرجعه في الغالب إلى فساد الهواء وكثرة العمران، وعدم مراعاة أصوله لكثرة ما يخالطه ،من العفن والرطوبات الفاسدة ، وإذا كان الفساد قويا كان

كان وقعه شديدا على الرئة[53].

كما أشير أن نخبنا في العصر الوسيط لم تخل مدوناتها المختلفة من ذكر وتاريخ للأوبئة سواء كانت مدونات لمشاهدات الرحالة أو كانت كتب التراجم والأنساب و المناقب .

ب . مدونات الفقهاء التي حوت الكلام عن الأوبئة وأسبابها والإجابة عن بعض معضلاتها :

لعلّ الظروف الاجتماعية والوبائية التي مرت بالأمة في ظروف عصيبة من تاريخها جعلت كثير من نخبها تتأثر لذلك، سواء لأنّها هي الأخرى فقدت عزيزا لها بسبب ذلك ،أو أنّها تأثرت للحالة العامة السائدة فجعلت من عزلتها المفروضة سانحة للتأليف أو الإجابة على المستفتين والحائرين في تلك الفترة،

52 ابن خلدون،مقدمة،ص25.

53 . المرجع نفسه،ص 238.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 /العدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

وهو جانب مشرق، يدل على تفاعل المعرفي مع مشاكل مجتمعه، والتعامل معها بإيجابية فمنذ القرن الثالث والعلماء يؤلفون لهذه الأوبئة ويؤرخون لها ،ويستفتون فيجيبون على ذلك. اكتفي هنا بذكر نماذج مغربية منها فقط :

1. تنبه أحد الفقهاء وهو أحمد بن المبارك اللمطي 1156هـ/ 1743م)[54] إلى حركة التبادل التجاري هي حد العوامل الكبرى في انتشار العدوى قبل أن تكتشفها أوروبا [55].

2.. مقالة يشرح فيها الحديث "إذانزل الوباء بأرض قوم" للفقيه المحدث الخطيب أبي عبد الله محمد بن يوسف بن عمر المزدغي الفاسي في زمن الموحدين (ت655هـ/ 1257م) [56] لكنه مفقود .

3.. إجابة أحد الفقهاء وهو أبو العباس بن القباب . في أواسط القرن الثامن عن حكم الناس زمن الوباء إذا كثر الموت هل أحكامهم فيه الحجر كحكمهم في غيره من حيث التصرف في المال "[57]

---

54 . الزركلي،الأعلام،201/1. 202.

55 . المرجع نفسه.

56 . ابن القاضي،جذوة الاقتباس،222/1

57 . مجموعة من الفقهاء ،أجوبة على أسئلة فقهية، مخطوط الخزانة العامة،الرباط،رقم أ 684،ص20 بواسطة بولطيب حسين، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين،ص 51 ، عمر بنميرة النوازل والمجتمع، مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان الثامن والتاسع / 14و15م)،ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،2012م،ص207.

4 تنبه أحد الفقهاء وهو أحمد بن المبارك اللمطي إلى حركة التبادل التجاري هي حد العوامل الكبرى في انتشار العدوى قبل أن تكتشفها أوروبا [58].

كما سئل سعيد العقباني عن الجذام [59]:

5 لقد جاء في مدونة نوازل الغرب الإسلامي والمعروفة بـ" المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والمغرب والأندلس" لأحمد بن يحي الونشريسي (ت914هـ/1508م) أسئلة عن العدوى ومخالطة الموبوء بالجذام والطاعون وغيرهما من الأمراض المعديّة والمقزّزة ، منها رأي الشرع في فرار الناس من بعضهم البعض خوفا على أنفسهم من العدوى [60]،وحكم ترك المصابين بالوباء عرضة للفناء[61].

الخاتمة

58 . المرجع نفسه.

59 المازوني، الدرر المكنونة ، 263/1، بواسطة مزهود سمية ،المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط ص138.

60 للاطلّاع على الجواب ينظر:أحمد بن يحي الونشريسي ،المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والمغرب والأندلس،تح: محمد حجي و آخرون،. دار الغرب الإسلامي ، بيروت،1981م/352/11. 358 .

61 المصدر نفسه،358/11. 359.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 /العدد: 1 (2021)، ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

من خلال هذه النماذج الحية من غابر تاريخ حضارتنا اقتصرت فيها على فترة قصيرة من العصر الوسيط منذ الموحّدين وما بعدهم خلصت إلى هذه النتائج:

1. إنّ الهدف من دراسة الحادثة التاريخية ليس اجترارا للماضي المنقضي ،أو الانتشاء بصنيع الأجداد إنما هو كيفية إحياء هذا الماضي في صورة الحاضر لتشوّف مستقبل واعد.

2 . لقد تمكّنت السّلطة السياسيّة الموحّديّة في بناء منظومة صحيّة متكاملة سخّرت لها كل الإمكانات المتاحة ،رغم ضعف نظيرتها في دول إقليمية قريبة ، كانت وراء تخفيف وطأة الوباء رغم حدّته ،وكثرة ضحاياه في 571هـ،وهذا ما يجعلنا نأمل أنّ سلطاتنا السياسية العربية والإسلامية تستطيع فعل الأمر نفسه إذا أرادت ذلك.

3. يبدو أنّ التّدابير التي اتّخذتها السّلطة الموحديّة زمن الأوبئة ناجعة ومخفّفة على الناس،سواء مع الجذمى أو مع الطاعون الأسود.

4 . لم يكن الحجر الصحي أو العزلة الإجباريّة التي فرضها الوباء سببا في خوف العلماء وشل حركتهم العلميّة عن التّأليف ،ومواساة أبناء مجتمعهم ،بل كانت حافزا قويا لزيادة إنتاجهم العلمي وعملهم الميداني..

5. بروز التكامل المعرفي لدى أطباء المغرب الوسيط ممّا أضفى بعدا روحيّا أخلاقيّا في تعاطيهم مع المرضى والأزمة عموما .

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدّينية والأوقاف
المجلد15 /العـدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

6. القدوة التي جسّدها الأطباء من خلال تعاملهم مع المصابين بالوباء، سواء بإيجاد العلاج للمرضى وإسعافهم،أو تعميم النفع بما توصلوا إليه من علاج ، وذلك بتدوينها في مؤلفات كانت و مازالت البشرية تستفيد منها.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 /العدد: 1 (2021)،ص111-137
Vol 15 / N°: 1 (2021), page111-137

قائمة المصادر والمراجع

[1] . أحمد بن القاضي،جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة ،الرباط،1972م،

2. أحمد بن يحي الونشريسي ،المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والمغرب والأندلس،تح:محمد حجي وأخرون،. دار الغرب الإسلامي ،بيروت،1981م، ج11

3. ابن أبي أصيبيعة،عيون الأنباء في طبقات الأطباء،:نزار رضا،دار مكتبة الحياة، بيروت،[د.ت]

4. الحسن بن محمد الوزان،وصف أفريقية،تر: محمد الحجي و محمد الأخضر،ط2،دار الغرب الإسلامي،بيروت ت،لبنان،1982م/

5. حسين بولقطيب،جوائح وأوبئة مغرب الموحّدين،منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء،2002م.

6. ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي.. قاهر الطاعون وصاحب أول كتاب الأوبئة . تقرير الجزية الوثائقية ، 6 مايو 2020 م.

7. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة ط 1،دار الكتب العلمية ،بيوت،لبنان،1424ه

8. ابن خلدون، مقدمة، ط1 ،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،2009م،

9. الذهبي،العبر في خبر من غبر،تح: أبو هاجر محمد زغلول، دار الكتب العلمية،بيروت، [د.تٍ].

10. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، مصور للطباعة والوراقة ،الرباط،1972م.

11. الزركلي، الأعلام ،ط15،دار العلم للملايين،2002م.

12. ابن الزيات التادلي،التّشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي،تح:أحمد التوفيق،ط2، مطبعة النجاح الجديدة،دار البيضاء،1997م،

13. سمية مزهود،المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط(588 . 927ه/1192-1520م)، ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري،قسنطينة،2009م،

14. بن عذارى،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،تح: كولان وليفي بروفنسال، ط1 دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان، 2009م.

15.ابن عبد الملك الأنصاري،الذيل والتكملة، لكتابي الموصول والصلة،تح:إحسان عباس،محمد بن شريفة،بشير عواد، ط1،دار الغرب الإسلامي،تونس،2012م، ج5.

16. عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر، التيسير في المداواة والتدبير، تح:محمد بن عبد الله الروداني،الرباط،1991م.

17.عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب،ط 1، المكتبة العصرية، صيدا،بيروت، 2006م .

18 . عمر بنميرة النوازل والمجتمع، مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان الثامن والتاسع / 14و15م)،ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،2012م.

19 مؤلف مجهول ،الاستبصار في عجائب الأمصار ،دار الشؤون الثقافية،بغداد،

20 محمد المنوني ، العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين،،ط2،مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر،الرباط،1977م،

21 tps://doc.aljaze .ra/تقارير/ابن-خاتمة-الأنصاري-الأندلسي-